لمن أكتب ؟

للأستاذ محمود محمد شاكر

بيني وبينها أيام معتقة كأنها خمر في دِنان الزمن، فإذا ما قدّر لنا أن نجتمع يوماً ، طارت بلبي نشوة ترمي بي إلى عالم ساكن سر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالماً صاخباً محترقاً لافح الرياح سف الأعاصير . واجتماعنا هو إحدى الأماني التي يقول في مثلها شاعر :

إني من سعدى وإن لاحت كأنما سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتني بالسؤال أتوقعه ، فيردني سؤالها إلى نفسي رداً عنيفاً لا أملك معه إلا أن بم طرق إلى هذا الوجه الذي يخفي وراءه نفساً ثائرة ، ولكنها كنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات . ولست أدري أتلك دى لطائف الحيل التي تحب أن توقظني بها من غفوة الأحلام، تلك يقظة دائمة في نفس لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين عوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ ي ذلك كان ، فهي قد أخذتني أخذاً شديداً حين استوت في سها وقالت : حدثني ، لمن تكتب هذا الذي تكتبه ؟ إنهم ماً نيام يغطون ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على مها أو إحراقها .

فلما أفقت على سؤالها ، جعلت أردده في نفسي وأنا أملأ ي من صفاء هذه الينابيع التي تترقرق في وجهها وفي عينيها . خيراً قلت لها : لن أجيبك إلا حيث تقرأين كلامي ، ودعينا نا ، فإن لقاءنا ساعةً قرت إلينا من هذا الفراق السرمدي .

* * *

لمن أكتب ؟ لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ أكتب ؟ ولكني أحس الآن من سر قلبي أني إنما كنت لكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدري من ، ولا أين هو : أهو حي فيسمعني ، أم جنين لم يولد بعد سوف ر له أن يقرأني ؟ ولست على يقين من شيء إلا أن الذي أدعو سوف يتحقق يوماً على يد من يحسن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية إلى الغاية التي خلقت لها ، وهي إنشاء حضارة جديدة في هذا العالم ، تطمس هذه الحضارة التي فارت بالأحقاد والأضغان والمظالم ، ولم يتورع أهلها عن الجور والبغي في كل شيء ، حتى في أنبل الأشياء — وهو العلم .

لم يخامر قلبي يأس قط من هذه الفترة التي نعيش فيها من زمننا ، ولم يداخلني الشك في حقيقة هذه الشعوب ، وإن كانت لا تزال تعيش في بلبلة جياشة بأخلاط من الغرور والخداع والعبث ، وفي أكفان من الفقر والجهل والمخافة ، وفي كهوف من الظلم والاستبداد وقلة الرحمة . كل ذلك شيء أراه وأعرفه ، ولكني أستشف تحت ذلك كله نقاء وطهراً وقوة تدب في أوصال هذا العالم الذي أوجه إليه كلامي ، وهو خليق أن يتجمع للوثبة في الساعة التي كتب له فيها أن يهب صرة واحدة تذهل الناس كما أذهلتهم من قبل ، وهو خليق أن يكون سر الحياة الجديدة التي تضرب عروقها إلى عصور بعيدة في تاريخ البشر . ولعل هذه المحن التي أحاطت به من خارج ، والتي استبطنته من داخل ، هي حوافز البعث الجديد ، وهي نار التمحيص التي تنفي خبثه كما ينفي الكير خبث الحديد .

أنا أعلم أن رجال السياسة عندنا لا يزالون أوزاعاً من خلق الله لا ندري كيف نشأوا ، وعلى أي شيء قامت شهرتهم ، ولا إلى أين تمضي أهدافهم ، وهم فوق ذلك كله قد لوّثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لا يمكن أن تؤدي إلى خير ، وهم قد تأثروا فتنة بأخلاق الساسة الطغاة الذين ابتلي بهم الغرب وامتحنت بهم الحضارة الغربية . ولست أشك ساعة في أنهم فئة لا خير فيها البتة ، مهما دل ظاهر تدليسهم أو تدليس الصحافة باسمائهم على أنهم يفعلون خيراً أو أنهم سوف ينتهون إلى خير . ولست أرتاب البتة في أن الخير كل الخير هو في زوالهم جملة واحدة من مكانهم ، لكي يتيسر لهذه الشعوب العربية والإسلامية أن تهتدي إلى الحق في حياتها وفي جهادها وفي أهدافها .

وأنا أعلم أن رجال العلم من أي أقسامه كانوا ، لا يزالون يتعبّدون أنفسهم لكثير مما لا نفع فيه لأممهم ، بل لعلهم لا يزالون يترفعون عن هذه الشعوب الفقيرة الجاهلة ، والتي هي شعوبهم ، ظناً منهم أنها شعوب لا تستطيع أن تبلغ ما بلغ أن

الناس فى العلم ، فضلا عن أن يدركوا سوابق العلماء فى هذه الفترة من زماننا ، فضلا عن يسبقوا أمم الحضارة الحاضرة فى ميدان هذه العلوم . وهم فى خلال ذلك — إلا من عصم الله — يبسطون ألسنتهم بسطاً شديداً فى أعراض هذه الشعوب ، فيقرفونها بكل مسبة ، ثم يصرفون وجوههم إلى أوربة وأمريكا وغيرهما كأنما هم منها ومن صميمها ، لا من هذه الشعوب البائسة التى ظنوا أن الموت كتاب محتوم عليها .

وأنا أعلم أن أكثر أهل السلطان فى هذا الشرق ، لا يزالون يعيشون فى عزلة لا يبالون قليلا ولا كثيراً بما فيه خير بلادهم ، وأنهم يحتقرون جماهير الشعوب احتقاراً ينسرب فى خاصّ كلامهم كما ينسرب فى أكثر أفعالهم . وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذاذات ، حتى ما تبالى أن تصب على أممها ضروباً من المظالم كان ينبغى أن تترفع عن ارتكابها ، لا رحمة بالناس ، بل مخافة من الناس ، فالشعوب إذا هاجها ما يهيجها لم تبق على شىء وإن كان فى بقائه خيرها .

وأنا أعلم أن أهل الدين — إلا من رحم ربك — قد رَمَوْا بدينهم ظِهْرياً ، وإن لبسوا لباسه وشهبوا على الناس وغرّوهم باسم هذا الدين . وهم يأكلون باسم الدين ناراً حامية ، وهم قد فقدوا بفقد آداب هذا الدين كل شىء يجعل لهم عند الناس مكانة ترفعهم عن الشبهات ، وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

وقصارى ما يقال هو أن الحيلة فى هذا الشرق على اختلاف نحله ومذاهبه وأديانه وأحزابه ، قد صار كأهل سفينة جن أكثر من فيها ، وكلهم يريد أن يقود السفينة كما خيلت له طوائف وساوسه وأوهامه ، مستبداً بما يرى من الرأى . ولكنى مع ذلك لن أيأس ساعة من أهل الخير ، لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المحيطة بالجماعة ، فيدفعها حب الحياة وحب الخير إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم ، ثم تنشط من عقالها إلى قيادة هذه الناس بقوة تنفث فى هؤلاء جميعاً روحاً مسدَّدة هادية تبرئهم مما أصابهم ، وتستنقذ منهم من يصلح للبقاء والعمل فى جيل جديد ، له هدف معين ، وله طريق لا يفارقه ، وله همة جياشة تجعله يطوى المسافات الترامية طياً حتى يصل إلى غايته لم يلحقه كلل ولا سآمة ولا إعياء .

فأنا أكتب لرجل أو رجال سوف يخرجون من غمار هذا الخلق ، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التى تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف ، تطوح بما لا خير فيه ، وتروى أرضاً صالحة تنبت نباتاً طيباً

ومهما كان من أمر تلك الطوائف التى ذكرتها ، ومهما كان رأيها فى هذه الشعوب التى تنتمى إليها ، ومهما عدت شعوبها سائمة ترعى أياماً معدودة حتى تتخطفها أرماح الأجل ، فمن هذه (السائمة) سوف ينفرد رجل يقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى كانت تنبض فى قلوبها . وهو وحده الذى يعرف كيف يرفع عن عيونها حجاب الجهل ، ويطرح عن كواهلها قواصم الفقر ، ويملأ قلوبها بما امتلأ به قلبه من حب هذه الأرض التى نعيش فيها مضطهدة ذليلة خائفة .

إنه الرجل الذى قد خُلطت طينته التى خلق منها بالحرية ، فأبت كل ذرة فى بدنه أن تكون عبداً لأحد ممن خلق الله على هذه الأرض ، فهو يشرق من جميع نواحيه على أجيال الناس كلها كما تشرق الشمس ترمى بأشعتها هنا وهنا ، ولا يملك الناس إلا أن ينصبوا لها وجوههم وأبدانهم ليذهب عنهم هذا البرد الشديد الذى شلهم وأمسك أوصالهم عن الحركة . وهو يسير بينهم فتسرى نفسه فى نفوسهم ، فتموج الحياة فيهم بأمواجها التى لا يقف دونها شىء مهما بلغت قوته أو جبروته .

ألا إن الشرق العربى لينتظر صابراً كعادته هذا الرجل .

وإنى لأحس أن كل شرق قد أصبح اليوم يتلفت لا من حيرة وضلال ، بل توقعاً لشىء سوف يأتى قد أنسى زمانه ، ففى كل نفس منه خاطرة تختلج . وهذا الإحساس فينا هو الذى يحملنى على الإيمان بأن ذلك كائن عن قريب ، وأننا قد أشرفنا على زمن قد كتب الله علينا فيه أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد ارتضعنا لبانها منذ الأزل البعيد . وكل ما دخل علينا فى القرون الماضية من المظالم والأكاذيب والاستبداد ، لم يستطع أن يخفت ذلك الصوت الذى تتجاوب به نفوسنا باسم الحق والحرية والعدل .

إن هذه الشعوب التى تُرَى اليوم كأنها على بلادها أثقال بالية ممزقة ، قد بدأت تحس أن عليها أن تتجدد أو أن تزول ، وطبيعة الحياة تأبى لها أن تزول ، فهى لابد أن تتجدد . وهذا الدافع